

## المقالة الثالثة والعشرون<sup>١</sup>

### في البتولية وصفاتها

إن بولس الرسول المشير الفاضل يعلمنا كلنا قدر بتولية النفس وطهارتها، ويحتسب درجة البتولية أفضل وأعلي من العالم لأنه قال : من له امرأة يهتم في كيف يرضي امرأته فأما المستسير بالبتولية فيهتم في أن يرضي الرب . فذاك الاهتمام يؤدي إلي العذاب وهذا يؤدي إلي الحياة الخالدة ، فالطوبى للإنسان الذي يهتم في أن يرضي الرب ويحفظ جسده طاهراً ليصير هيكلاً مقدساً طاهراً للمسيح الملك . أيها الإنسان قد صرت باختيارك هيكلاً لله لا بالزام وغضب بل بإثرة ونشاط ، وقد عرفت أن من يكن إنساناً للإله العلي يسكن روح الله فيه فإن كان منظفاً نقياً يقدهس ليكون استعماله ماثوراً لسيدته ، أسمع يا أخي المخلص ما أقول لك وأكتب ألفاظ حقارتي في قلبك ، منطلق ذاتك وتضرع بأمانة صافية مهذبة ورجاء ومحبة ، أنتصب كالرجل الشهم لتحفظ هيكل الله من سائر الأفكار الدنسة والنجسة المزروعة من العدو ، صر بجملته نفسك غنياً معانياً بمداومة تجارب العدو لأن تجارب الخبيث تتقاطر دائماً لتجد إنساناً مسترخياً ومنتزهاً لتفسد هيكل جسدك ذلك الشقي لئلا يكون ماثوراً لاستعمال سيده ، فأحذر علي نفسك لئلا توجد قابلاً بذاتك تجارب العدو ، أتجهل أيها الأخ من هم المحاربون الخبيثاء والمجلبون الأفكار الدنسة والشهوات الرديئة هم " الغضب والاضطراب ، السخط والمماحكة ، وعبودية الآلام " فهؤلاء هم المجربون الذين لا يخلجون ، والأردياء الذين لا يكفون ولا يشبعون من الشر وإذا غلبوا يدارك برازهم دائماً لأن أصل الشهوة وقح لا يخزي ، أقتلع أيها الأخ أصل الشهوة من قلبك لئلا ينبت وينبع فلو قطعته ربوات مرات تثبت بقدر ذلك إن لم تقتلع بالجملة جذرها ، جاهد متواتراً لتكون هيكلاً لله بلا دنس وبلا عيب ، إن هيأت هيكلك لله فالإله القدوس يعطيك عوضه الفردوس المطرب لنياحتك ، صر بانتصارك علي الآلام والأفكار الدنسة حافظاً هيكلك قديساً ليكون بهياً لله ومقبولاً ، أصغ إلي ذاتك ألا تدخل في الهيكل عوض السيد الأقدس الطاهر العدو النجس فيفسد هيكلك لأنه عدو ماقت الخير فإنه وقح فاسد الخلق لا يخل تنتهره مراراً كثيرة وتخرجه إلي خارج وهو يتواقح فيلاكم ويزاحم ليدخل ، أما الله الغير محدود الطاهر القدوس فما أبعد هو بل أنت طردته ، إذ أدخلت الدنس وصرفت القدوس ، أبغضت الملك وأحببت المارد ، أبعدت عين الحياة وتقلبت في الحمأة ، عدمت النور وشاركت الظلمة ، من أجل رخاوتك أسلمت ذاتك إلي العدو النجس ، إن الإله القدوس أثر أن يسكن في هيكلك دائماً أما أنت فأحزنت السيد الصالح الرب الذي لا يشبع منه ، التائق أن يعطيك ملكه لأن الصائرين هياكل لا عيب فيها وطاهرة يسكن الله فيهم ، فإن أثرت أن يسكن الله في هيكل جسدك كافة أيامك التي تعيشها علي الأرض فالله القدوس يسكنك في فردوسه في النور الذي لا يقاس والحياة التي لا تموت إلي أبد الدهر بفرح عظيم وينجيك هناك ، أتراك سمعت هذا أو قرأته أن يوماً واحداً في نور ملك الله كآلف سنة في هذا الدهر ، أفتح قلبك أيها الأخ وأقبل أن تستاق إلي الله كافة أيامك فإن الاشتياق إلي الله هو حلاوة واستنارة وسروراً دائماً ، إن صبوت إليه دائماً يسكن فيك سرمداً ، إن الله غيور طاهر وقدس يسكن في نفس الذين يتقونه ويصنع مراد الذين يحبونه ، أتؤثر أن تكون لله هيكلاً نظيفاً لا عيب فيه ، أتخذ أيقونته في قلبك دائماً وأعني بأيقونة الله لا المرسومة بألوان الأصباغ علي ألواح

<sup>١</sup> كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع  
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس  
طبع سنة ١٨٩٢

خشب أو علي شئ آخر بل تلك الصورة المزخرفة العجيبة في النفس المرسومة فيها بالأعمال الحسنة بالأصوام بالحميات بالمسك بالاعتدال النفيس بالاسهار والصلوات ، فألوان صورة السيد السمائي هي اعتدال الفضائل الأفكار النقية التعري من الأرضيات مع الطهارة والوداعة جميعاً ، لا يكلل في العالم أحد خلواً من جهاد ، وفي سيرة النسك بغير حرص وجهاد لا يمكن أحد أن ينال الإكليل الذي لا يذبل والحياة الخالدة ، لأن هذا العالم يضاهي جلبة فالمجاهدون الكاملون بوداعتهم يضعون ذاتهم في المقام بلا خوف ، أما المسترخون والخبثاء فيهربون برخاوتهم من الجهاد ، فالمجاهدون الكاملون النساك وذوو الحمية والنسك قدام أعينهم الفردوس المطرب منتظرين كل حين أن يتمتعوا بكافة الخيرات في النور المؤبد والحياة الفاقدة الموت ، أفتؤثر أن تجاهد وتظهر كاملاً أليس الفضائل كثوب وإذا ليست فضيلة فجاهد ألا تنزعها ، أرهب الخمر لئلا تضحك وتعريك من الفضائل كما عرت الصديق في القديم ، أتعرف قوة الخمر أم لا ؟ أسمع أنا أخبرك : نوح الرجل الصديق والبار البهي في الجيل الفاسد الذي أستحق أن يسمع من الله أقوالاً ومدائح لأن الله قال له : إياك وحدك شاهدت صديقاً في هذا الجيل الفاسد ، هذا الصديق الذي غلب طوفان المياه غُلب من نبيذ قليل ونام ، إن المياه التي لا توصف كميتها ما غلبته والخمر اليسيرة كشفت جسد الصديق الصائر رئيس آباء الأمم ، وهذا النبيذ أيضاً أسترق لوط البار في نومه لأنه سرق به من أبنتيه وحملنا منه بضد الطبيعة . الصديقون والأبرار ما شفقت عليهم الخمر ، فأنت الشاب الحقيير كم أولى بها أن تغلبك ، أرهب النبيذ لأنه لا يشفق علي الجسم ألبتة بل يضرم فيه نار الشهوة الرديئة ، لا يتراخي جسمك بحرارته لئلا تقتنص من قبل الأفكار الرديئة والدراسة القبيحة فتكون غير فاعل بشركة الجسد وبالعقل تشارك الهذيل الرديء ، إن الخطية نفسها ضلال وصنم فإن تقدمت تمسك منها وتندم كل حين وتعانق كل وقت أصنام الخطيئة المتخائلة لناظر الذهن فتتخيل معابيتها وتكثر مناجاتها ، وإذا ذقت حلاوة دراستها ترخي فكرك وتتغلب إنغلاباً لا يبرأ ، وتخطئ خطأ لا يستوضح فيصيح الناظرون يشاهدونك واضحاً حاوياً كافة الوداعة وأنت في ضميرك تتعذب باطناً متندماً حزياً بلا انقطاع لأن للإنسان ضميراً يوبخه وعادة الشهوة الرديئة المألوفة حين تكمل يتبع الحزن أثارها فيرى وجهه بالزي الظاهر وديعاً وهو من داخل لا دالة له بالكلية قدام الله ، ترى من لا يبكي وينوح ومن لا يحزن إنه في طرفة عين واحدة يتراخي الفكر فتخطئ حينئذ إلي الله عمداً وتطرد منه الموهبة السماوية أعني الطهارة والبتولية ، لأنه حينما يكون هيكل الجسد قديساً وطاهراً يسكن فيه الإله الأعلى فإن أنفسد الهيكل وتدنس في الحين يتركه السيد ، وعض النور السمائي والأقدس يدخل الدنس ويقطن مستوطناً تدخل لذة الشهوة الرديئة وتدنسه كل وقت ، ترى من يخطر هذا في قلبه بغير دموع وهو أن الإله القدوس رفض الهيكل وسكنته الشهوة الرديئة ، أتعرف ذلك فأبتعد منه لأنه من أين وإلي أين سقط إن من أصابه ذلك لا يشبع من الدموع والزفرات ، من أنغلب برخاوته في الجهاد ورأى آخر غالباً في الجهاد والصراع مشهوراً بالأكلة والرايات وظافراً والجماعة بمدحونه محيطين به ، تكتنفه ندامة موجعة ويعذب ذاته الحزن ، فيقول في نفسه لم في لحظة واحدة أنغلبت للفكر وهربت من الجهاد ، فما الذين أكملوه في مجد عظيم ومدائح جسيمة وأنا أختفي بخجل لأنني أنهزمت منه ، كذلك يوم المجازاة إذا أبصر المسترخون والخطاة الصديقون والأبرار بسرور عظيم بعضهم في الفردوس وآخرين في الملك ، آخرين في السحب يتطايرون في النور ، وهم في النار التي لا تطفأ والظلمة القصوى ، حينئذ تحرق بهم ندامة عظيمة مرهوبة ، وبكاء لا ينفع . فلذلك أطلب إليك يا أخي المحبوب أن تصير مشابهاً للآباء الكاملين القديسين الذين لا عيب فيهم ، أسلك علي آثار الآباء السائرين بالبتولية الطاهرة ، وبالنسك المهذب ، والصلاة والصوم حب النسك تُق إلي الصلاة مخاطباً السيد لأن كل صلاة نقية مقدسة تخاطب بها السيد ، صلاة المشتاقين إلي الله ترتقي متواتراً بفرح عظيم إلي السماء والملائكة ورؤساء الملائكة بيتهجون بها ويقمونها أمام عرش السيد الأقدس العالي سيد الكل وحينئذ يكون السرور ، حين يقدمون قدام الله صلوات الصديقين الوادين لله .

أحرص إذاً أيها الأخ كي تصير مضاهياً سيرة الآباء القديسين وفضائلهم، أسلك في طريق سيرتهم ، إنسك نظيرهم إنسك بالمعقول ، إنسك بالروح ، إنسك بالجسد ، إنسك بالزي ، في الطعام ، باللسان ، بالناظر ، بالفكر ، بالضحك ، لتستبين في كل شئ كمجاهد كامل ، أصغ إلي ذاتك وأحذر أن توجد إذا صليت متنزهاً طموحاً ، إذا أنتصبت تصلي إلي الله فقف بخشية ورعدة ، أطرِح من قلبك وما يحوط به الفكر والاهتمام بسائر الأرضيات ، صر بكليتك أجمع في ساعة الصلاة ملاكاً سمائياً وجاهد أن تكون صلاتك مقدسة ونقية بلا وسخ ولا عيب حتى إذا بلغت الأبواب السماوية وقرعت للحين تفتح لها ، وإذا أبصرها الملائكة ورؤساء الملائكة يستقبلونها كلهم مسرورين ويقدمونها إلي عرش السيد الطاهر الأقدس والشاهق ، صر كل وقت في ساعة الصلاة كالشاروبيم والساووفيم ماثلاً أمام الله . أيها الأخ أدرس هذه الأقوال وترنم بها بخشية وبهجة فإنها ترزق النفس أغذية روحانية، وتنتزع منها مرارة العالم الباطل وتحليها وتخففها من ثقل المهمات الأرضية والأمور الوقتية ، كل ما سمعته أحرص أن تحفظه بعقلك دائماً فيرتاح الله فيك وتجد دالة في الساعة المرهوبة المرعبة إذا جاء المسيح ليجازي كل أحد نظير عمله . له المجد دائماً وعلينا رحمته أمين